٢٠- مع المُعلِّم الشَّاعِر

وصلَني ذاتَ يَوم خطابٌ من مُدير التَّعليم في صَبْيَا، ومعَه قصيدةٌ للمعلِّم حسَن حمَد عزّ الدِّين أبو علَّة، يشكُو فيهَا حالَ المدرَسة التي يعملُ فيهَا وحاجتَها للكهرباء، ويطلبُ أنْ يؤمَّنَ لهُم مولِّدُ كهرباء. وعُنوانُ القَصيدة (دمعة يراع) يقول فيها:

حدِّثاني عَن الهَوَى حدِّثاني
واقبَلا الصَّمتَ والبُكا واعذرَاني
حدِّثاني عن الهَوَى إنَّ سَمعي
مُولعٌ بالجَوَى وصَدِّ الغَوَاني
حدِّثاني ولا تُطيلا سُكوتاً
كلُّ داءٍ يَزيدُ بالكتمَانِ

وانظُرَا الكبتَ كيفَ يغدُو دماراً
كيفَ يُزْري بفوهَةِ البُركانِ

حَدِّثاني عَن الهَوى رُبَّ ليلٍ
صارَ دَهراً بآهةِ الوَلْهان

يا خَليلي والمساءُ كئيبٌ
بالغُ الهمِّ قاتمُ الألْوان

حدِّثاني فللهَوَى ألفُ مَعنى
شيَّدَ الحُسنُ أُسَّهَا والمبَاني

أخبرَاني فإنَّ قَلبِي جَريحٌ
وبناءٌ مُصَدَّعُ الأركَان

غيرَ أنِّي إلى الهَوَى فيَّ داعٍ
كلَّما قمتُ للرَّشَاد دعَاني

فـإذا الحلمُ صـارَ سُـكراً وصَـحـواً
أبدلَ الكأسَ أخـتـهـا فـابتَـلاني

نبـتَـغـي الوَصلَ والوصـالُ مميتٌ
يُفـقـدُ الحبَّ لذةَ الحِـرمـان

كَم سـعَـينـا إليـه دونَ ارعـواء
وملَـلْناه بعـدَ طُولِ التَّـداني

غـيـرَ أنَّ الوصـالَ يبـقَى لِزامـاً
رؤيَـة الـطَّـيف أو رُؤَى الـوَسـنـان

كلُّ حُبٍّ يـصـيـرُ بَعـدُ جَـفـاءً
غـيـرَ حُبٍّ في سـاحَـة الـرَّحـمن

يا مـديَـر التَّـعليـم هذَا خطَـابي
مُـثـقلُ الخَطْـو أصـفـرُ اللَّون وَان

يا مـــديرَ التَّـــعليم هَـذا نداءٌ
لأبٍ طيِّب السَّـــريرَة حَـــان

كـــرَّمَ اللـهُ منه أصْـــلاً ورُوحـــاً
وحـبَـــاه (كَـرامـة) الـعنوان[1]

أيُّـهـــا الوالـدُ الـعظيمُ بـدَرب
فـــيـــه وصـلُ اليَـــمين بـالإيمَان

أيُّهـــا الوالـدُ الرَّحـيـمُ بمشـــفَى
نمنحُ الـعينَ فـيـــه للعُـمـــيـان

كـيفَ باللَّـه ـ سـيِّـدي ـ لَـو ترَانا
نطرد الـطفلَ في حـمَى الجُـدران

كـيفَ باللَّه لَو سـمعتَ جـدَالاً
كلُّ فَـــردٍ يقـــولُ هـذَا مكَـانِي

(١) كرامة: هو اسم أخي الكريم مدير التعليم في صبيا، أعانه الله ووفقه.

كـيفَ باللَّـه لَو رأيتَ صَـغـيـراً
مُستغيثاً في قَاعَة الامتحَان:

قَد عَييتُ ومـا عرفتُ جَـواباً
ووضـعتُ الأهرامَ وَسط عُـمَـان

وجـعلتُ من (ثُم) حَـرفَ نداء
وجررتُ المنصوبَ (بالضمَّتَانِ)

لا تَلومُـوا فـإنَّني اليَـومَ خَـصمٌ
لامتـحـانٍ تحـوطُهُ مِـحنَتَـان

أيُّ عِـلـم يـكـونُ بـينَ ثَـنـايَـا
شـدَّةِ الحَـرِّ وازدِحـامِ المَكانِ؟!

* * *

يا مـــديرَ التَّـــعليم إنَّـا بخَـــبت
قَـــمْطَـرير يفـــوحُ بالـنِّيـــران

يا مـديرَ التَّعليم ـ والله ـ شـمسٌ
لَوَنَّـتْنَـا بصـــبـــغَـــة القَـطِران

واحـتـــبـاسُ الهَـــواء حتَّى كـأنَّا
قـد حُبسْنَا في دَاخل البَرْطَمـان[1]

لو رأيتَ الجـبـــاهَ كـيفَ تبـاكَتْ
بدمُـــوع ومـــا لَهَـــا عَـــينَان

إن أتَى الرِّيحُ بـالنَّسيـم ابتـهَـجْنا
واقـتـسَمْنَـا الأفراحَ بعـدَ التَّهـاني

كلُّ فَـــرد يَجيءُ مـــثلَ عَـــريس
ألْـمَـــــعِيِّ مُـطَيَّـبِ الأرْدَانِ

(١) البرطمان: إناء من زجاج أو خزف، تحفظ به المُرَبَّيات ونحوها.

ثُم يَلوي إلى الدِّيار عَبُوساً
بثيابٍ كأنَّه الأصْفَهَانِي[1]
كيفَ والكهرباءُ يَوماً ستَأتي
فوقَ (جُعَل) يقودُه (غَيْلَمان)!!

* * *

يا مديرَ التَّعليم هذَا خطابٌ
جاءَ يشكُو في حِليَة الخَجلانِ
قَد قصدْناكَ قصدَ أهْلِ العَطَايا
وأتينَاكَ رغبةَ الإحسَان
إنَّمَا الكهرباءُ سرٌ عَجيبٌ
يُلْبسُ المَيْتَ ثوبَ عمرٍ ثان

(١) الأصفهاني: هو أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، وقد عُرفَ بشدة اتساخ ملابسه.

ويبثُّ النشـــاطَ بينَ خَـــلايا
جَـامـدات في عَـالَم النِّسـيـان
فانظُر الأمرَ واقشَعَنْ سُحبَ بُؤس
وأغـثْنَا بفَـيـضكَ الهَـتَّـان

* * *

أيُّهـــا الوالـدُ العظيـمُ اعـتـذاراً
لَـك منِّي لَمَا بـراهُ لسَـــانـي
ولمـا سطـرَتْ دُمُـــوعُ يَراعـي
ولَمَا أشـعلَتْ شُـمـوعُ بيَـاني
غـيـرَ أنِّـي وجَـدتُ فـيكَ فـؤاداً
عُـــمَـــريّا يُشِعُّ بالإيمَـانِ

وبعدَ أنْ قرأتُ رسالةَ مُدير التَّعليم والقصيدةَ رأيتُ مخاطبةَ ذلكَ المعلِّم؛ حيثُ أحرصُ على تَشجيع المواهب، ومُخَاطَبة المعلِّمين؛ فهُم صُنَّاعُ الأمَّة، وبناةُ المستقبَل.

ولهذَا كتبتُ رسالةً لأخي المعلِّم حسَن حمَد أبو علَّة، ذكرتُ فيهَا أهميَّةَ دَور المعلِّم، وأبدَيتُ إعجَابي بالقَصيدة، وأنَّ الرِّسالةَ وصلَت، وكانتْ من أبلَغ الرَّسائل، وأنفَذ الحُجَج، وأنَّه تَمّ الاستجابةُ للطَّلب. وبعدَ أيَّام وصلَتْني من ذلكَ المعلِّم الرسالةُ التاليةُ، حيثُ يقولُ فيهَا:

أستَاذي الفاضلُ، الدكتورُ عَبد العَزيز بن عَبد الرَّحمن الثنيَّان وفَّقَه اللهُ

السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه، وبعد:

لقَـد وصلَتْني رسالتُكم الغـاليةُ، التي كـانَت علَى اختصَارِها تفـيضُ بمعَاني الأُخُـوّة وعَطف الأُبُوَّة.

ولَم أكُن سـاعتَـها أعلـمُ بأيّهمـا أنَا أسعـدُ؟ أبقُدوم المُولِّد أم بوُصُـول الرِّسالة؟! وقَـد عَمَّتْ هَذه السَّـعـادةُ الهـيـئـةَ العـاملةَ بالمدرَسـة وعَلى رَأسهم مُـديرُ المَدرسة، وكُلُّهم يلهـجونَ بالشُّكر والدُّعاء لكُم.

أستَاذي الفَـاضلُ، لقَد أصبحَتْ دمـعةُ يَراعنا بسمةً. نسألُ اللهَ أن يسعدَك في الدُّنيا والآخرَة.

ولقد هيَّـجْتَ مكامنَ الشِّعر في نَفـسي لتأتيَ لقَصيدة (دمعـة يراع) أختٌ صُغرَى، هيَ (بسمة يراع). أتشرَّفُ بإهدَائها لكُم شَخصيّا، رَاجياً أن تجدَ أكـثرَ ممَّا وجـدَتْهُ أختُـها منكُم من إعـجَاب

واهتمَام.

ولكُم منِّي ومن هَيـئَـة الإدَارة والتَّـدريس بالمدرسَة خالصُ الشُّكر والتَّقدير.

«بسمة يراع»

يا ابنَ نَجـد قـتلتَ قَلبَ الجَـنوبي
بكَـلام مُـضَـمَّخٍ بالطُّيُـوبِ
ومَـلأتَ الفـؤادَ نحـوكَ شَـوقـاً
فـهَـنيءُ المَنام أضـحَى سَليـبي
بِتُّ بـاللَّـيل أعـصـرُ فـكري
أيّ شِـعـرٍ أصُـوغـهُ لـلحَـبـيبِ

قُلتَ شِعـراً ولَم يكُن غيـرَ نَثر
غـيـرَ أنِّي لمستُ رُوحَ الأَديب

صُغْتَ بالحَـرف للمَحَبَّـة لَحْناً
فـاقَ في الحُسْن رَوعـةَ الـعَنْدَليب

قَـد أتَاني البَـريد مُـضْنًى مُـعَنّى
يشـتكي حُـرقـةً وطولَ الدُّروب

سارَ في دَربه علَى الشَّهـر عَـشراً
بعـدَ عَشر فـجاءَني كالغَـريب[1]

جـاءَني أحْـرُفًـا تَبُـوحُ بوَجْـد
فـتـلاقَى لَهـيبُـهـا بلَهـيـبِي

أصْـدقُ الحب مـا أتَـى دونَ قَـصـد
كـانَ سِـراً مُـقـدَّراً في الغُـيـوبِ

(١) يقصد أن الرسالة التي أرسلتها إليه تأخرت في البريد مدة طويلة، حيث وصلته في ١٢/ ٤/ ١٤١٧هـ.

والوِدَادُ الصُّــرَاحُ مــا كــانَ بَلْوَى
ليسَ تُشْفَى بحكمَــة أو طَبــيبِ

* * *

إيه يا ســيِّـدي شَـرَحـتَ صُـدوراً
لَم تَزلْ تشتَكي ازدحـامَ الكُروب

إيه يا ســيِّـدي مَسَــحْتَ عُـيــوناً
أمـطرَتْ وارتـوَتْ بدَمـعٍ سَكيـب

قَـد وقَـفْـنا بجَـمْـعنا فـي خُـشـوعٍ
فــأتيــتُـم بجُــودكم كَــالخَـطيب

فَطَـربْنا ومَـــا نَطَـقْتَ بحَـــرف
إذْ رأينَـا فـــعَـــالَ شَـــهـم أَريبِ

نحنُ يا وَالـدي اشـتكَينـا كَـثـيـراً
وصـــرَخْنَا ومَـــا لنَا من مُـــجـــيبِ

واحـــتـــرقْنَاَ لـــمَّـــا مَلَلْنا جَـــواباً
فَـــمَـــزجْنا صُـــراخَنا بالنَّـحـيب

كَم شكَـوْنا فُـصـولَنـا في عَـراء
دونَ سُـور يَصـدُّ سُـوءَ الخُطوب

تَرْتَـعُ الضَّـــأنُ بينَنا وشـــيـــاهٌ
سـائمـاتٌ كَـأنَّهـا في الخَـصـيب

وازدحَـام الـفُـصـول داءٌ عُـضَـالٌ
يجـعلُ الدَّرسَ في مَـقامٍ عَـصـيب

مـا لنَا غـرفـةٌ لنَجلـسَ فـيـهَـا
حـالُنا مُـؤسفٌ وجـدُّ عَـجـيب

قـد أتـانا مُـولَّدٌ فـاهْتَـمَـمْنا
يبـتَغي حُـجْـرةً ونَفْضَ (الجيُـوب)

* * *

أمَـلاً أشـرقَتْ شُـمـوسُكَ فـينَا
بَدَّدَتْ فَـجْـأةً ظلامَ الغـروبِ
وتَبـدَّى يَراعُنـا بابتـهَـاجٍ
باسـمـاً يَـزدَهي بثَـوبٍ قَـشـيبِ
فَـيَـدُ الجُـود تجعَلُ القَـحـطَ غـيـاً
تُنْبتُ العُـشـبَ في المكَان الجَـديب
وعظيمُ المَـعـروف مَـا ظَلَّ قَـيْـداً
كَـبَّـلَ الشُّكْرَ بـالسُّكُوت الـرَّهيب

فـأَصَـــاخَتْ وَسَـائلُ الـنُّطْق إلا
منْ حَـــديث يَـدُورُ بينَ القُـلوبِ

وإذَا المرءُ بـالسَّـــخَـــاء تَغَـطَّى
صَـدَّ عَنْ نَفْسـه سِـهـامَ العُـيـوب

فـــتَـــراه الـعُـيـــونُ في كُـلِّ فَجٍّ
مَلَكـاً قَـد مَـشَى بغَـــيـــر ذُنوبِ

عَـجَـبـاً أنْ تَرَى الكريمَ بَـعـيـداً
صـــارَ فـينَا بصُنْعـه كَـالقَـريب

ومُـحِـبـاً يعـيـشُ هَجْـرَ مُـحَبٍّ
قـــد تَسَلَّى عَن وَصْله بالـنَّســيبِ

ألا مَا أجـملَ الشِّعرَ! ومَـا أعذبَ التـخاطُبَ
معَ المعلِّـمينَ المخلصينَ بُنَاةِ المـسـتـقـبَلِ، وأمَلِ

الأمَّة! ويا حَسْرَتَى حينَ لا نستجيبُ لحاجَات المدَارس الكَثيرة وطلَباتها المتعدِّدة؛ فكَم نحرصُ علَى تَوفير الجَوِّ التَّربويِّ، ولكنَّ النموَّ التعليميَّ المتزايدَ والاعتمَادات الماليةَ تحدُّ من الطُّموح، وتجعلُ المسؤولَ في مَوقف صَعب، فهَذه المدرسَةُ التي يتَحدَّثُ عنَها الشَّاعرُ بحاجَة إلى فُصول إضافيَّة وأسوَار وصَالات. ومَا أكثرَ المدَارس الَّتي تماثلُ هَذه المدرسةَ!

إنَّ المبانيَ المدرسيةَ أهمُّ مشكلَة، وأكبرُ معضلَة. ومَهمَا أنجزَتْ وزارةُ المعَارف من مشاريعَ فإنَّها تظلُّ أمامَ تحدٍّ كَبير. فقَد وصلَتْ المشاريعُ قبلَ حَرب الخَليج إلى دَرجة أنَّ وزارةَ

المعَارف صارَتْ تتسلَّمُ كلَّ يَوم مدرسةً، ولكنَّ النموَّ الطلابيَّ أكبرُ. ولا أَدري كيفَ ستكونُ الحالُ بعدَ عَشرِ سَنواتٍ؟! وكانَ اللهُ في عَونِ المسؤولينَ.